الرمز في الشعر العربي المعاصر

الدكتور محمد فنطازي – جامعة الأغواط – الجزائر

تقديم :

الرمز له دور هام في الفكر الإنساني، فما من نشاط ذي بال من نشاطاته إلا والرمز لبّه وصميمه، سواء أكان نشاطا دينيا أو فنيا أو علميا أو اجتماعيا، حتى قيل أن العالم كله يتحدث من خلال الرمز [1] والرمز ليس أداة تقرير ومقابلة وانتخاب ،فهو لا يقابل واقعا بواقع آخر ، فلا يفترض عليه ،ولا يستعير منه، ولا يكنّ عليه، بل إنه ينفذ في ضميره وفي نواياه، و يطلع من قلب المادة الصماء أرواح الحقائق الكامنة فيها[2] ، ومن ثم يعد الرمز وسيلة لتجاوز الواقع المادي إلى عالم الفكر و التجريد[3]، واستخدام الرمز في الشعر يعني العودة إلى جوهر الشعر وطبيعته الإيحائية ،حيث لا يقف الرمز عند قدم الأشياء المادية لتصويرها ،بل يتعداها لينقل التأثير الذي تتركه هذه الأشياء في النفس بعد أن يلتقطها الحس ،فهو

---

1 د. نعيم اليافي، تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، ص277

2 إيليا الحاوي، الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي ، دار الثقافة ، بيروت لبنان،ط2 ،1983، ص 142

3 CHARLES CHADWICK,SYMBOLISM, METHUEN ET COLTD ,LONDON ,1971,P 6

إذن لا يعبّر عنها بقدر ما يعبّر عن الأجواء الضبابية المبهمة التي تسربت إلى أعماق الذات المتفرعة المتباعدة الأصول والأطراف. [1]

والرمز الأدبي أو الشعري في معناه الخاص، إشارة حسية مجازية لشيء لا يقع تحت الحواس ..أي أن الرمز الشعري يتكون من مستويين ،مستوى الأشياء الحسية ،أو الصورة الحسية التي تأخذ قالبا للرمز ،ومستوى الحالات المعنوية المرموز إليها ،وحين يندمج المستويان نحصل على الرمز.[2]

ويتوقف نجاح هذا المنهج الرمزي، على قدرة الشاعر في المزج بين المستويين الحسي والمعنوي مزجا تفنى فيه الحالة المعنوية التجريدية في المعطيات الحسية، التي تتخذ رموزا لها ،حتى تفقد المعطيات الحسية ماديتها وتتحول إلى دلالات تجريدية ،[3]ومن ثم فإن الشاعر لا يستطيع الاستغناء عن أحد المستويين في خلق الرمز، أو أن يستخدم أحدهما في التعبير عن الآخر ،كما أن المستوى الحرفي أو الظاهر لا يسخّر بطريقة مصطنعة واضحة للتعبير عن معنى آخر ،فالمعنى الثاني ينمو نموا باطنيا من المعنى الأول .[4]

---

1 أنطوان غطاس كرم، الرمزية والأدب العربي الحديث، دار الكشاف، بيروت لبنان، ص12

2 د. علي عشري زايد، عن بناء القصيدة الحديثة، مكتبة دار العلوم ، القاهرة، ط1، 1983، ص 111

3 المرجع السابق ، ص111

4 د. مصطفى ناصف، مشكلة المعنى في النقد الحديث، مكتبة الشباب، 1965، ص 91

فالرمز يستمد منه السياق إشعاعه ،ويمتد بعيدا لا يقف عند فكرة خاصة ،بل يحتاج على الدوام إلى أن يعبرها إلى ما سواها ،وربما عبرها إلى ما يعارضها ،فالرمز لا يجسم فكرة ،ولا يشخص فضيلة ،وذلك كله لا مرد للاقتناع به إلا السياق ؛فالرمز ابن السياق وأبوه. [1]

كما أن الرمز ينتزع من الواقع أي ذي صبغة منقطعة مستقلة في حد ذاتها ،وليس مع علاقة بينه وبين الشيء المادي إلا بالنتائج ،فالصورة الرمزية بحسب ما يحددها كانت توحي للشيء الذي ترمز إليه ،وهذا الإيحاء لا يتأتى بواسطة تشابه في المظاهر المحسوسة بين الصورة المجردة والشيء ،بل بواسطة علاقات داخلية بينهما، مثل النظام والانسجام والتناسق وغيرها... [2]

والشاعر هو الذي يقيم بين الرمز والمرموز إليه علاقة داخلية خفية وذلك عن طريق خياله ،كما يخلقها الواقع المشترك والمتشابه الذي يجمع بينهما، والذي يحسه الشاعر والمتلقي على السواء [3] ومن ثم يعد الرمز وسيلة لتجاوز الواقع المادي إلى عالم الفكر والتجريد ،وقد تكون هذه الأفكار ذاتية تتضمن عواطف الشاعر وأحاسيسه ،وقد تكون أفكارا خارجية أو فلسفية خاصة به .

ونستطيع أن نطرح هنا سؤال :ما علاقة الرمز بالصورة ؟وللإجابة عن هذا السؤال يمكننا القول :أن الرمز والصورة يتفقان في أن كليهما وسيلة من وسائل الإيحاء، التي يوظفها الشاعر في التعبير عن أحاسيسه و مشاعره ،والفارق بينهما

1 د. مصطفى ناصف، الصورة الأدبية ، ص 158

2 أنطوان غطاس كرم ،الرمزية والأدب العربي الحديث ، ص9

3 د. محمد أحمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، مصر، ط2 ، 1978، ص 38

ليس في نوعية كل منهما بقدر ما هو في درجته من التركيب والتجريد ،الرمز وحدته الأولى صورة حسية تشير إلى معنوي لا يقع تحت الحواس ،ومن ثم يمكننا أن نقول : إن علاقة الرمز بالصورة هي علاقة الجزء بالكل، بالإضافة إلى أن الصورة تظل على قدر من الكثافة الحسية، أما الرمز فإنه على درجة عالية من الذاتية والتجريد.[1] وقد أتاح الرمز للشاعر إمكانية الربط بين الأشياء الحسية والمعنوية، وذلك عن طريق إيجاد علاقات داخلية خاصة بهما ،فإنه أيضا يوفر الحيوية والحركة للعمل الفني لأنه انتقال مستمر ،يضع في هذه الجوامد حياة ،لأنه يحولها إلى كائنات نفسية تندرج في تطور[2]، كما يحرر النفس من إطار المنطق الجامد إلى قوة الحدس، التي لا تدرك قرارة اللاوعي إلا عن طريقها ،كما أنها قادرة على اكتشاف المناطق القائمة في النفس، على حين يعجز العقل والمنطق كلاهما عن الكشف عن مثل هذه الأحاسيس المبهمة.[3] ويمكن تقسيم الرموز في الشعر الحر إلى نوعين :

رموز ذاتية :وهي الرموز التي يستخدمها الشاعر في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه الذاتية، من حب وحزن وقلق وطموح ،ولكن بطريقة غير مباشرة، وذلك من خلال إعادة خلق هذه المشاعر والأحاسيس في ذهن المتلقي.

رموز موضوعية: ويستخدم الشاعر فيها صورا ملموسة ليست لأفكار ومشاعر ذاتية، ولكنها صور لعالم مثالي أو لأفكار خارج ذاته ،ويعبر بهذه الرموز عن أبعاد رؤيته الاجتماعية والقومية والفلسفية ،وقد استطاع شعراؤنا الاستقاء من

1د. محمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، ص 139-140

2 أنطوان غطاس كرم، الرمزية والأدب العربي الحديث ، ص 12

3 المرجع نفسه ، ص 13

الأساطير اليونانية مثل: سيزيف وبروميثيوسن و أدويسيوس وبنيلوب وأدونيس وفينوس وبرسفون ومن البابلية: تموز وعشتروت . ومن العربية: السندباد وشهرزاد وشهريار وعنتر وأيوب وقابيل وهابيل. ومن العبرية: المسيح ولعازر ويهوذا... [1]

وهذا ما لاحظه علي عشري عند صلاح عبد الصبور وخاصة في ديوانه الأول "الناس في بلادي "،بأنه وضع أسس معجم رمزي ،استمد بعض رموزه من الطبيعة ومن الحياة المعاصرة كما استمد بعضها الآخر من التراث.[2]

ويشير محمد فتوح: "إلى أن الحزن والحب والطموح الإنساني في الحقيقة :ثالوث متعدد الأوجه تكاد تدور عليه معظم رموز الشاعر المصري "صلاح عبد الصبور "وأنه للإيحاء بهذه المنازع الذاتية، اتكأ في ديوانه الأول "الناس في بلادي "على الصورة الرمزية غالبا ،أما ديوانه الثاني "أقول لكم "فقد التجأ فيه إلى الإطار الرمزي المستمد من التراث القومي أو العالمي، يصوغ فيه أفكاره ويحدد رؤيته للنفس والوجود ،أما المرحلة الثالثة فقد استطاع الشاعر فيها أن يزاوج بين الرموز المستمدة من التراث ،والرموز المستقاة من واقع الطبيعة ،حيث اتجه الشاعر إلى النماذج الرمزية التراثية، يصور شخصية من شخصيات التاريخ أو التصوف تصويرا، يشف عن أفكار ومشاعر عصرية."[3]

وقد لجأ شعراء الشعر الحر إلى مجموعة من الرموز يجسدون من خلالها مشاعر الطموح والقلق والمعاناة في سبيل ارتياد تلك الآفاق المجهولة في كل جوانب

1 د أنس داود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، دار المعارف، مصر،ط1992،3، ص 246

2د. علي عشري، قراءات في شعرنا المعاصر، ص 57

3 محمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، ص 275

الحياة، وكانت النماذج الرمزية التراثية بمثابة "المعادل الموضوعي" لهذه المشاعر والعواطف، وذلك عن طريق تجسيدها في شخصية أو موقف أو حدث تراثي[1] .كون المعادل الموضوعي هو السبيل للتعبير عن العاطفة في شكل فني، أي يخلق مجموعة من الأشياء والمواقف أو الأحداث أو الرموز، تكون معادلا أو قالبا للعواطف، وبهذه الطريقة يتجنب الشاعر التعبير عن عواطفه بشكل مباشر، بل يضفي على عمله الشعري الموضوعية – وهذا ما تقوم به الصورة بالضبط – عن طريق الرمز و الإيحاء و التأثير. وهكذا وضع شعراء الشعر الحر أيديهم على منجم ثرّ، عطاؤه لا ينفذ، وقدرته لامتناهية ،على بعث الإيحاءات وتتميز بقدرتها على التأثير في نفوس الجماهير و وجداناتهم..حيث تعيش هذه المعطيات التراثية في وجدانات الناس وأعماقهم، وتحفُّ بها هالة من القداسة والإكبار، لأنها تمثل الجذور الأساسية لتكوينهم الفكري والوجداني والنفسي.[2] ومن ثم فالشاعر المعاصر يتخذ من معطيات هذا التراث الثري رموزه التي من خلالها يستطيع أن يعبر عن قضايا حاضره السياسية والاجتماعية، وهمومه الذاتية، مضفيا على تجربته نوعا من الثراء والأصالة.. ويعد"السندباد" الذي عرف في حكايات ألف ليلة وليلة الأسطورية بحبه للمغامرة والرحلة، وهو صاحب الرحلات السبع، التي صادف فيها الأخطار والأهوال، ولكن حب المجازفة كان يدفعه دائما إلى ارتياد المجهول، وفي كل رحلة من رحلاته السبع يعود ظافرا، محملا بالكنوز الثمينة، والهدايا العظيمة والحكايات المثيرة. ويعد صلاح عبد الصبور أول من اكتشف هذا الرمز التراثي من الشعراء الرواد، وقد اعتبر الشاعر نفسه سندباد يغامر ويرحل في آخر المساء في متاهات

1 د.السيد محمد علي ، شعر صلاح عبد الصبور الغنائي، دراسة نقدية ، ص 335

2 د. علي عشري، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص137

الكلمات، ومجاهل الأحاسيس، ويعاني أهوال هذه المغامرة الفنية، فينضح جبينه بالعرق، ويمتلئ الوساد بالورق، ويتحول دخان تبغه الذي يعتقد أنه سيخفف من توتره، إلى أخطبوط يطبق على أنفاسه، ولكنه يعود آخر المساء محملا بكنوز الشعر الثمينة[1]، يقول صلاح عبد الصبور:[2]

وفي آخر المساء يمتلىء الوساد بالورق

كوجه فأر ميت طلاسم الخطوط

ينضح الجبين بالعرق

ويلتوي الدخان أخطبوط

إنها رحلة الشاعر السندباد، رحلة خاصة حافلة بالمعاناة، فرحلته ليست في البحار ولكنها في عالم الفكر والخيال، وهو لا يصارع الأمواج ولكن الأفكار الهاربة، والألفاظ التي تثبتها، وهو لا يستعين بالمركب والمجداف، إنما بالأوراق ولفائف التبغ... وهكذا يلتحم النسيج الشعري بالرمز ومفرداته[3] ،ثم يطالعنا بطل هذه الرحلة في قوله:[4]

في آخر المساء عاد السندباد

1 السيد محمد علي، شعر صلاح عبد الصبور الغنائي، دراسة نقدية، ص 336

2 صلاح عبد الصبور، ديوان صلاح عبد الصبور، ج1/ ص10

3د. مختار علي أبو غالي، مقال بعنوان "سندباد صلاح عبد الصبور (نقد أسطوري)"، دار الفكر، العدد 4 ،أبريل 1996 ، ص187

4 صلاح عبد الصبور، ديوان صلاح عبد الصبور، ج1/ص 10– 11

ليرسي السفين

وفي الصباح يعقد الندمان مجلس الندم

ليسمعوا حكاية الضياع في بحر العدم

والتوحد بين الرمز(السندباد) والمرموز إليه (الشاعر) ،لا يقف عند همـــوم الرحلة والمعاناة وهول التجربة، واقتناص الشيء الثمين، بل نجده أيضا في موقـــف القارئ اللامبالي الكسول العاجز عن الفهم، مما يجعل البون شاسعا بين هذا العناء المبذول، وذلك المتلقي البليد الذي أصاب سندبادنا بالإحباط والخيبة، حتى بلغ به الحال أن يفكر في أن يبخل على قرائه بهذه الكنوز، وأن يكف عن ارتياد المجهول إلا أنه لا يكف عن المغامرة وبذل الجهد ،لأنه يحقق من خلالها ذاته، يقول صلاح عبد الصبور:[1]

السندباد :

(لاتحك للرفيق عن مخاطر الطريق)

(إن قلت للصاحي انتشيت قال:كيف؟)

(السندباد كالإعصار إن يهدأ يمت)

الندامى :

هذا محال سندباد أن نجوب في البلاد

1 المصدر نفسه، ج1 / ص 11 – 12

إنا هنا نضاجع النساء

ونغرس الكروم

ونعصر النبيذ للشتاء

ونقرأ(الكتاب)في الصباح والمساء

وحينما تعود نعدو نحو مجلس الندم

تحكي لنا حكاية الضياع في بحر العدم

والعلاقة بين شاعرنا والسندباد تضرب بجذورها في أعمـــاق تكوينـــه الفكـــري والوجداني، عندما كان يزوره في أحلامه ،وهو طفل صغير، يقول الشاعر: [1]

وفي الليل كنت أنام على حجر أمي

وأحلم في غفوتي بالبشر

وعسف القدر

وبالموت حين يدك الحياه

وبالسندباد والعاصفه

وبالغول في قصره المارد

1 المصدر السابق، ج1/ ص 59 – 60

فأصرخ رعبا ..

وتهتف أمي باسم النبي

وقد تختفي شخصية السندباد التراثية في القصيدة ، ويستعيض الشاعر عنها بأهم ملامحها وخصائصها وهي الرحلة وخوض البحار والضياع ومواجهة الأخطار ،وتصبح هذه الخصائص بمثابة خلفية للموقف الشعوري الذي يعبر عنه[1]، وهو بذل الجهد والمعاناة من أجل اقتناص العبارة الشعرية المؤثرة، يقول صلاح عبد الصبور:[2]

في كل مساء ؛

حين تدق الساعة نصف الليل ،

وتذوي الأصوات

أتداخل في جلدي ،أتشرب أنفاسي

وأنادم ظلي فوق الحائط

أتجول في تاريخي ،أتنزه في تذكاراتي

أتحد بجسمي المتفتت في أجزاء اليوم الميت

أتشابك طفلا وصبيا و حكيما محزونا

[1] د . عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص 214

[2] صلاح عبد الصبور، ديوان صلاح عبد الصبور، ج1 / ص 324 – 325

يتآلف ضحكي وبكائي مثل قرار وجواب

أجدل حبلا من زهوي وضياعي

لأعلقه في سقف الليل الأزرق

أتسلقه حتى أتمدد في وجه المدن الصخرية

أتعانق والدنيا في منتصف الليل

* * * * *

حتى تدق الساعة دقتها الأولى

تبدأ رحلتي الليلية

أتخير ركنا من أركان الأرض السته

كي أنفذ منه غريبا مجهولا

فالألفاظ (أجدل ،ضياع ،أتسلق ،قباب المدن الصخرية ،رحلتي الليلية ،...) مجتمعة تستدعي إلى الأذهان شخصية سندباد ،ولكن رحلته في هذه القصيدة رحلة في أعماق نفسه وتاريخه وذكرياته ،يريد من خلالها أن يكتشف ذاته وهذه الرحلة إلى الداخل، تظل تلح على شاعرنا فنراه في قصيدة "تأملات ليلية "يبدأ رحلته التي ترتبط دائما بالمساء ،وموعد الانطلاق يكون دائما في آخر المساء عندما ينتصف الليل ، ولكن الرحلة في هذه القصيدة، هي في الأفكار وفي عيون الناس لمعرفة ما تقوله ،وتنتهي الرحلة إلى أعماق ذاته ،ولكنه يعود من رحلته خائب

المسعى أصابه التعب ،فلا يستطيع أن يمتع ندمائه ،لقد فقد الشاعر(السـندباد)في هذه الرحلة شجاعته وجسارته و أصابه الخوف والهلع ،وفقد فصـاحته وبيانـه، فأصابه العجز ،ويكتشف أنه سقط في كمين، يقول صلاح عبد الصبور:[1]

أبحرت وحدي في عيون الناس والأفكار والمدن

وهمت وحدي في صحارى الوجد والظنون

غفوت وحدي ،مشرع القبضة ،مشدود البدن

على أرائك السعف

طارق نصف الليل في فنادق المشردين

أو في حوانيت الجنون

سريت وحدي في شوارع لغاتها ،سماتها عماء

أسمع أصداء خطاي

ترن في النوافذ العمياء

وطرت بين الشمس والسحابة

ونمت في أحضان ربة الكتابه

1 المصدر السابق ،ج 3/ ص 449 – 450

لكنني ،هذا المساء

(ممدا ساقي في مقعدي المألوف)

أحس أني خائف

وأن شيئا في ضلوعي يرتجف

وأنني أصابني العيُّ،فلا أبين

وأنني أوشك أن أبكي

وأنني سقطت في كمين

ويتردد معنى الرحلة –أيضا– في قصيدة "الإبحار في الذاكرة"، وإن كان يتخذ طابعا آخرا ،وهو الرحلة داخل الذات، بغية اكتشاف أعماقها المجهولة، ومن أجل ذلك يقوم الشاعر بطقوس ليلية أشبه بالطقوس الصوفية ،ويتعرض في هذه الرحلة للمخاطر والأهوال النفسية ،ويقدم القرابين للبحر الغضبان داخل ذاته، يقول صلاح عبد الصبور:[1]

أتأهب للميعاد –الرحلة–في آخر كل مساء

أتقرى أورادي ،أتزيا شارتي

في أهداب الغيم ،أنشر أشرعتي

[1] صلاح عبد الصبور، الإبحار في الذاكرة ، ص 63 وما بعدها

أتلقى في صفحتها نذر الريح ،نبؤات الأنباء

وأخوض رماد الآفاق

إلى جزر المعلوم المجهول الدكناء

يتكشف تحتي موج الموج ،وتمضي بي الريح رخاء

وتتحول رحلة السندباد /الشاعر إلى رحلة صوفية، يصل فيها إلى نهاية المطاف حيث يرقى إلى مقام سني ،يسمع فيه ما يرى، ويرى ما يسمع ،وتتكشف أمامه الحجب، وعندها يغترف ما شاء له من المعارف وبذلك تتحقق له المشاهدة، وكأن الشاعر بذلك يؤكد نهاية المطاف لرحلاته ومغامراته الفنية، ولعل شاعرنا أحس أنه بلغ تمامه ،وأن سندباده قد أتم الدورة، مادام كل شيء قد تجلى له وتكشف ،فليس بعد التمام إلا النهاية ،وهي الحتمية المفروضة التي لا فكاك منها، ثم يرثي روحه المنكسرة، التي أضنتها المغامرات وأهوالها، فيقول:

أناخ عليك المساء وأثقل

حتى انكسرت شجى

وانحللت هباء

ويثقل نفسك ما حملت من رؤى

وما احتملت من ظلال البلاد

وما احتملت من شجى كامن أو أسى مستعاد

فنبرة الاستسلام والإحساس بالعجز، تتكشف لنا من خلال إحساس الشاعر بثقل الحمل الذي حمله ،وجاء التعبير بالمضارع (يثقل) الدال على الاستمرارية بمثابة اعتراف بوطأة هذا الحمل، الذي جعله يبذل كل طاقاته التي تطالعنا من خلال تكراره جملة الصلة (احتملت)حتى أصبح –الآن- ينوء به

وقد اتضح لنا أن رمز السندباد الذي وظفه عبد الصبور، والذي كان يطالعنا من خلال وسيلتين :الأولى هي الاستدعاء المباشر في قصيدة "رحلة في الليل "و"الملك لك" و "عندما أوغل السندباد وعاد ".

أما الأخرى فهي الاستدعاء غير المباشر كما في قصيدتي "رؤيا"و "تأملات ليلية " عن طريق استعارة مدلولها العام مثل :حب الرحلة وعشق المغامرة وسلبية الأصدقاء والإبحار إلى عالم مجهول ... أما السياب فقد ربط الصلة بين رمزي أوديسيوس بطل الأوديسا والسندباد، فكل منهما تاه في البحار ،وكل منهما شاهد الكثير من العجائب ،يقول بدر في قصيدة "رحل النهار ":[1] رحل النهار

ها إنه انطفأت ذبالته على أفق توهج دون نار

وجلست تنتظرين عودة سندباد من السفار

والبحر يصرخ من ورائك بالعواصف والرعود

هو لن يعود ،

1 بدر شاكر السياب، الأعمال الشعرية الكاملة بدر شاكر السياب، دار العودة، بيروت لبنان، 2005 ،ج2 / ص 284 وما بعدها

أو ما علمت بأنه أسرته آلهة البحار

في قلعة سوداء في جزر من الدم والمحار

هو لن يعود ،

رحل النهار

خصلات شعرك لم يصنها سندباد من الدمار

شربت أجاج الماء حتى شاب أشقرها وغار

ورسائل الحب الكثار

مبتلة بالماء مُنطمسٌ بها ألق الوعود

وجلست تنتظرين هائمة الخواطر في دوار:

"سيعود .لا.غرق السفين من المحيط إلى القرار

سيعود. لا .حجزته صارخة العواصف في إسار "

يا سندباد أما تعود ؟

كاد الشباب يزول ،تنطفئ الزنابق في الحدود

فمتى تعود ؟

فسندباد السياب في هذه القصيدة هو أوديسيوس، الذي تاه مرغما في طريق عودته بعد هزيمة طروادة بالحيلة التي دبرها ...فانتقمت منه الآلهة التي كانت تناصر الطرواديين ..ففرضت عليه التيه والفزع والرعب والمرور بالأخطار ...أما السندباد فقد كان متطلعا للمعرفة ،باحثا عما يُشوّق ،يستحثه فضول لاهف للرحلة بعد الرحلة، فبواعث الرحلة مختلفة عند كل منهما ،ولكن الاستخدام الشعري الحديث ،يجد أحيانا في كل منهما ملاقاة الأخطار ،والترحيب بمواجهة المجهول ،والتعبير عن الرغبة في الإنعتاق من أسر الواقع، ورتابة الحياة الاجتماعية.. ولذلك يجدل الشاعر من معالم حياتهما معا نموذجا فنيا[1]

كما نجد رمز السندباد عند السياب ظهر مواكبا لمرحلة حرجة في حياته، مرحلة القلق الذي صاحب اهتزاز المفاهيم النضالية في ذهنه باهتزاز روابطه الحزبية، وبداية تلمسه طريقا نضاليا آخر يتواءم مع تفكيره –في ذلك الوقت–، ففي تصويره لعالم الأطفال[2]. يقول بدر:[3]

عصافير؟ أم صبية تمرح

عليها سنا من غد يلمح؟

وأقدامها العاريه

1 د.آنس داود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ص 250

2د.علي عبد المعطي البطل، الرمز الأسطوري في شعر بدر شاكر السياب، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، ط1، الكويت، 1982، ص179

3بدر شاكر السياب، الأعمال الشعرية الكاملة ، ج2/ ص 182

محار يصلصل في ساقيه

لأذيالهم زفّة الشمأل

سرت عبر حقل من السنبل

وهسهسة الخبز في يوم عيد

وغمغمة الأم باسم الوليد

تناغيه في يومه الأول

* * * * *

كأني أسمع خفق القلوع

وتصخاب بحارة السندباد:

رأى كتره الضخم بين الضلوع

فما اختار إلا كترا... وعاد !

ولعل هذا الموقف الوحيد في شعر السياب، الذي تتحقق فيه المعجزة، وإن كان تحقيقها يتم في عالم الطفولة البريء، فهذه هي المرة الوحيدة التي وجد فيها الجوال السندباد هدفه، إذ وجد الكتر الثمين الذي يرتحل بحثا عنه، ووجده قريبا غاية القرب لأنه في داخله، فرجع عن بحثه تاركا كنوز المادة.

هذا الكنز يبرر الموقف؛ الذي يبنيه الشاعر على تحقيق المعجـــزة في بقيـــة القصيدة، فعالم الأطفال الضعيف ذو العواطف الإنسانية ، يفرض على المـــؤمنين بالإنسان أن يقدموا له الحماية الكافية، ضد تجار الحروب وعابدي الذهب، وهذه هي الفكرة المحورية للقصيدة.[1] كما استخدم- أيضا- بعض الأحداث والمواقف التراثية، التي يجد لها بعدا نفسيا خاصا في واقع تجربته الشعورية، وهذه المواقف أو الأحداث إنما تستدعيها التجربة الشعورية الراهنة، لكي تضفي عليها أهمية خاصة.

استغل الشعر الحر التراث الديني ومنها شخصية المسيح -عليه السلام-، وقصـــة صلبه وتضحيته، وإن كان الله تعالى يقول:"وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهـــم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، مالهم به من علم، إلا إتباع الظن وما قتلـــوه يقينا".[2] فالحديث عن الصلب خروج عن النص القرآني الصريح ،وتصـــادم مـــع العقيدة الإسلامية ،غير أن شعراء الشعر الحر. رأوا أن صلب المسيح ،وفداءه للبشر تكفيرا عن الخطيئة الكبرى، يخدم هدفهم الفني في الرمز إلى التضحية المطلقة والفداء النبيل ،فلم يتوانوا عن استخدام هذه الصورة، بغض النظر عن المعتقد الديني.[3]

فقد استخدم السياب هذا الرمز وخاصة في قصيدة "المسيح بعد الصلب"، فموت السيد المسيح على الصليب، هي لحظة إتمام رسالته- بالنســـبة للمعتقـــد المسيحي- و بها بلغ هدفه وهو رفع الخطيئة عن كاهل البشرية ،لهذا فهـــي قمـــة انتصاره ، وهو انتصار معنوي، لا يمكن أن نحس أثره إلا في الدار الآخرة ،حيـــث

1 د. عبد المعطي البطل، الرمز الأسطوري في شعر بدر شاكر السياب، ص 180

2 سورة النساء الآية 157

3 د. أنس داود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ص 252

تتمكن للبشرية من دخول ملكوت السماء بفضل تضحيته الجسيمة [1]،ولهذا يتقمص السياب شخصية المسيح ويعيش بها مواجها للأحداث في عصره ومجتمعه ،مضحيا مرة ،وناكصا عن التضحية مرة أخرى، ناجحا في تحقيق الأثر المطلوب من وراء تضحيته حينا ،وفاشلا في ذلك حينا آخر[2]، يقول بدر شاكر السياب :[3]

حينما يُزهر التوت والبرتقال ،

حين تمتد "جيكور"حتى حدود الخيال

حين تخضرّ عشبا يغنّي شذاها

والشموس التي أرضعتها سناها

حين يخضرّ حتى دجاها

يلمس الدفء قلبي ،فيجري دمي في ثراها ،

قلبيَ الشمس إذ تنبض الشمس نورا

قلبيَ الماء ،قلبي هو السنبل

موته البعث : يحيا بمن يأكل

في العجين الذي يستدير

1 أنظر الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، إنجيل متى ، ص 42 – 43

2 د. علي عبد المعطي البطل، الرمز الأسطوري في شعر بدر شاكر السياب، ص 154

3 بدر شاكر السياب، الأعمال الشعرية الكاملة ، ج2/ ص 106– 107

ويُدحى كنهد صغير ،كثدي الحياة

تقمص الشاعر هنا صورة السيد المسيح، وهي حلوله في المؤمنين حيث يتناولون القربان المقدس، وهذا ما يمهد لصورة أخرى تستمد شكلها ...من صورة عيسى بن مريم الذي يزرع في كل موسم ويحيا بالموت ،ويبذل نفسه لحياة الناس فيحيا فيهم.[1] يقول السياب :[2]

متُّ بالنار : أحرقت ظلماء طيني فظل الإله:

كنت بدءا وفي البدء كان الفقير

متُّ،كي يؤكل الخبز باسمي ،لكي يزرعوني مع الموسم

كم حياة سأحيا :ففي كل حفره

صرت مستقبلا ،صرت بذره

صرت جيلا من الناس :في كل قلب دمي

قطرة منه أو بعض قطرة

هذه هي الصورة التي ينتهي إليها موقف الصلب، فالمضحي هو البذرة التي ستفصم بنموها تماسك النور و الظلام، ولكن قوى الظلام التي قامت بصلب الشاعر، لن تترك هذه البذرة، دون محاولة اقتلاعها، أو على الأقل تأخير نموها ما

1 د. علي عبد المعطي البطل، الرمز الأسطوري في شعر بدر شاكر السياب، ص 157

2 بدر شاكر السياب، الأعمال الشعرية الكاملة ، ج2/ ص 107

أمكن، ولذلك فإن الشاعر حين يتجلى بعد الصلب، كما تجلى المسيح بقيامه من بين الأموات، يجد يهوذا تلميذ الأمس وعَدُوّ اليوم له بالمرصاد، إذ لا يطول ارتباك يهوذا أمام المضحي العائد[1] وإنما يعود ليناصبه العداء مرة أخرى، حتى يعيـــده إلى عالم الأموات، يقول السياب:[2]

هكذا عدت، فاصفرَّ لما رآني يهوذا...

فقد كنت سرّه

كان ظلا، قد اسودّ، مني، وتمثال فكرة

جُمّدت فيه واستلت الروح منها،

خاف أن تفضح الموت في ماء عينيه...

(عيناه صخره

راح فيها يواري عن الناس قبره)

خاف من دفئها، من محال عليه، فخبّر عنها

"أنت !أم ذاك ظلي قد ابيض وارفض نورا؟

أنت من عالم الموت تسعى ! هو الموت مرّه

هكذا قال آباؤنا، هكذا علمونا فهل كان زورا؟"

1 د. علي عبد المعطي البطل، الرمز الأسطوري في شعر بدر شاكر السياب، ص 158

2 بدر شاكر السياب، الأعمال الشعرية الكاملة ، ج2/ ص 107– 108

ذاك ما ظنّ لما رآني، وقالته نظره

استأثر رمز المسيح في القصيدة، وهو أمر تحتمه التطورات الجديدة في حياة الشاعر، فعندما كان السياب في طليعة النضال تعرض للسجن- الصلب-، ثم يحيا من جديد بمجرد خروجه من السجن أو نزوله من فوق الصليب، ولكنه في هـــذه المرة لم يعد يقوى على تجدد البعث ثانية، ولما كان السيد المسيح قُبر بعد صـــلبه، ورفع إلى السماء- حسب العقيدة المسيحية- فهو الرمز الملائم لما يريد الشاعر أن يوحي به ،فهو يمهد لرفع اسمه من قائمة المناضلين المضحين ،مكتفيا بمـــا قدمـــه في ماضيه ،دافعا الراية إلى الشعب وللأجيال الجديدة ،وهو يشخص هـــذه الحالـــة بصدق تام [1] وذلك في قوله:[2]

أعين البندقيات يأكلن دربي

شُرَّعٌ تحلم النار فيها بصلبي

إن تكن من حديد ونار ،فأحداق شعبي

من ضياء السماوات ،من ذكريات وحب

تحمل العبء عني ،فيندى صليبي ،فما أصغره

ذلك الموت ،موتي،وما أكبره

بعد أن سمروني وألقيت عيني نحو المدينه

1 د. علي عبد المعطي البطل، الرمز الأسطوري في شعر بدر شاكر السياب، ص 158- 159

2 بدر شاكر السياب، الأعمال الشعرية الكاملة ، ج2/ ص 109- 110

كدت لا أعرف السهل والسور والمقبرة :

كان شيء ،مدى ما ترى العين

كالغابة المزهره

كان في كل مرمى ،صليب وأم حزينه

قُدّسَ الرب

هذا مخاض المدينة

ورمز السيد المسيح استخدمه –أيضا– صلاح عبد الصبور، ليرمز بـــه إلى واقعه النفسي الحزين الذي يحسه على الرغم من حبه لقومه، كما كـــان الســـيد المسيح يفعل،ويتحمل الآلام من أجلهم ،إلا أنهم قابلوا ذلـــك الحـــب بـــالجحود والإنكار في حياته، ولكنهم سرعان ما ندموا ،وأدركوا قدره ،ولكن بعد وفاتـــه .ويسلمه هذا الموقف إلى حيرة تجعله يتساءل أسئلة لا يطلب لها إجابة، بقدر ما يطلب التأمل والعظة منها. ويستمد من التراث الديني المسيحي أيضا "الصليب"، ليرمز به إلى ما يتحمله من عذاب وألم وحرمان من السعادة، نتيجة لصراعه مـــع تلك العادات والتقاليد السلبية، التي تعوق تقدم المجتمع العربي، وتحول بينه وبـــين تحقيق واقع مشرق يختفي فيه التخلف والركود الفكري[1]،يقـــول صـــلاح عبـــد الصبور: [2]

1 السيد محمد علي، شعر صلاح عبد الصبور الغنائي دراسة نقدية، ص 341– 342

2 صلاح عبد الصبور، ديوان صلاح عبد الصبور، ج1/ ص 149– 150

أنا الذي أحيا بلا أبعاد

أنا الذي أحيا بلا آماد

أنا الذي أحيا بلا أمجاد

أنا الذي أحيا بلا ظل ..بلا صليب

الظل لص يسرق السعاده

ومن يعش بظله يمشي إلى الصليب في نهاية

الطريق

يصلبه حزنه،تُسمل عيناه بلا بريق

يا شجر الصفصاف :إن ألف غصن من غصونك

الكثيفه

تنبت في الصحراء لو سكبتُ دمعتين

تصلبني يا شجر الصفصاف لو فكّرت

تصلبني يا شجر الصفصاف لو ذكرت

تصلبني يا شجر الصفصاف لو حملتُ ظلّي فوق

كتفي،وانطلقت

وانكسرت

أو انتصرت

كما أن شعراء الشعر الحر استخدموا في رموزهم الدينية شخصية النبي الصابر أيوب –عليه السلام–، فقد سمى السياب عشرا من قصائد ديوانه مترل الأقنان "بسفر أيوب ". إلى جانب قصيدة أخرى في الديوان نفسه باسم "قالوا لأيوب "،وقد رأى السياب نفسه في أيوب فهو مبتلى مثله، وهو يتضرع بالصبر والإيمان مثله ،فيما يُروى عنه في القرآن الكريم، وفي الكتاب المقدس [1] ،وهو يأمل أن يشفيه اللّه كما شفى نبيه، يقول السياب: [2]

لك الحمد مهما استطال البلاء

ومهما استبدّ الألم

لك الحمد ،إن الرزايا عطاء

وإن المصيبات بعضُ الكرم

ألم تعطني أنت هذا الظلام

وأعطيتني أنت هذا السحر ؟

****

1 د. أنس داود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ص 292

2 بدر شاكر السياب، الأعمال الشعرية الكاملة ، ج2/ ص 297

شهور طوال وهذي الجراح

تمزّق جنبي مثل المُدى

ولا يهدأ الداء عند الصباح

ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى

ولكن أيوب إن صاح صاح :

"لك الحمد ،إنّ الرزايا ندى

وإنّ الجراح هدايا الحبيب

أضمُّ إلى الصدر باقاتها

هداياك في خافقي لا تغيب

هداياك مقبولةٌ هاتها "

ففي هذه القصيدة طغى السياق على الرمز طغيانا، حتّى أصبح بإمكاننا حذف اسم أيوب واستبداله باسم الشاعر، وقد وصل السياب في هذه القصيدة ذروة الصفاء الروحي ،فهو القانع الصابر الراضي بقضاء الله، وهكذا نجده -أيضا- في قصيدة "قالوا لأيوب"،والتي ترتكز على محاورات أليفاز التيماني وبلدد الشوحي وصوفر النعماتي لأيوب في مرحلة مرضه ،وعلى عبارة أيوب الشهيرة " عريانا

خرجت من بطن أمي وعريانا أعود إلى هناك الرب أعطى،والرب أخذ ، فلـــيكن اسم الرب مباركا[1] "،يقول السياب :[2]

قالوا لأيوب "جفاك الإله "

فقال "لايجفو

من شدّ بالإيمان ،لا قبضتاه

ترخى ولا أجفانه تغفو "

قالوا له :"والداء من ذا رماه

في جسمك الواهي ومن ثبته ؟

قال:"هو التفكير عمّا جناه

قابيل والشاري سُدى جنّته

سيهزم الداء: غدا أغفو

ثم تفيق العين من غفوه

فأسحبُ الساقَ إلى خلوه

[1] الكتاب المقدس ، العهد القديم ، سفر أيوب ، الإصحاح 42 ، ص 594

2 بدر شاكر السياب، الأعمال الشعرية الكاملة ، ج2/ ص 332– 333

أسأل فيها اللّه أن يعفو

****

يارب لا شكوى ولا من عتاب

ألست أنت الصانع الجسما ؟

****

هيهات تشكو نفسي الراضية

إني لا أدري أن يوم الشفاء

يلمح في الغيب

سيترع الأحزان من قلبي

ويترع الداءَ فأرمي الدواء

قد قام السياب بقلب الأدوار في المحاورة ،وليس هذا تشويه للرمز –كما قال علي البطل – 1 ،لأن تحوير القصة جائز ،بل لازم أحيانا لإخضاعها للسياق الجديد ،ولكن الشاعر أبهت شخصية أيوب فبإمكاننا حذف اسم أيوب في معظم المواضع التي ورد فيها واستبدالها باسم السياب دون أن يختل السياق.

1 د. علي عبد المعطي البطل، الرمز الأسطوري في شعر بدر شاكر السياب، ص 204

وهكذا وجد الشاعر – في الشعر الحر – في الرموز رحابة وقدرة على استيعاب تجاربه الشعورية والفكرية ،بالإضافة إلى قوة إيحائها، وعمق تأثيرها في نفس المتلقي.

***